

قصة التورط الفرنسي ودور الرجل الغزّ الشتوكي . . . والحسن الثاني الذي لا يثق بوسادته (الحلقة الأخيرة)

بن بركة : بريق عينيه سيظل يلاحق المتورطين في خطفه وقتله

تعرض الحلقة السادسة الأخيرة من ملف «قضية بن بركة» المعلومات عن تورط مسؤولين أمنيين فرنسيين في تسهيل خلف المهدي، ودور «الرجل الغزّ» المعروف بـ «الشتوكي» في القضية.

الرباط - محمد الأشهب

المغربي شبكة مغامرین احتالوا على إحدى الشركات النفطية في أوروبا، وقال أنهم لكن ثمة معطيات لم يكشف النقاب عنها ابدأ تطاول أول زيارة قام بها وزير الدفاع المغربي السابق المحجوبي احرضان الى موسكو بدعوة من وزير الدفاع الروسي مالبينوفسكي الذي كان بدوره زار المغرب في فترة كانت فيها فرنسا والولايات المتحدة تمارسان ضغوطا على المغرب لجهة عدم المساعدة في تسليحه. وربما كان اللات في هذه المرحلة أن جهاز الاستخبارات المغربي «الكاب ١» كان في بداية التشكيل، في حين أن المعلومات التي صدرت حول قيام عملاء اميركيين بالمساعدة في بناء الجهاز قد تكون شجعت الروس وقتذاك على الدخول في خط الحوار مع المغرب. لكن قبل ذلك سيتم تداول معلومات في منزل مدير الأمن الوطني السابق محمد الغزاي حول تصفية معارضين ورجال «جيش التحرير»، مما يحمل على الاعتقاد في تشابك قضية المهدي بن بركة مع مصالح جهات عدة كانت تامل في انهاء وجوده.

قبل حوالي أربعة أشهر من خطف بن بركة، سافر العميل لوبيز الى المغرب رفقة شريكه جورج بوتنيس. كان السبب مشروعاً تجارياً لاقتناء فندق سياحي في الدار البيضاء. وثبت انه زار المغرب مرات عدة خلال الفترة ذاتها وقبها ببعضه اسابيع، وانه نزل في ضيافة الجنرال محمد أوفقير أكثر من مرة، مما طرح تساؤلات حول كيفية تمكن عميل في مستوى لوبيز من اقتحام الأسوار العالية في علاقات الاستخبارات المغربية. والإرجح أن علاقته المتميزة مع الضابط الفرنسي «فابي لوروا» ومعرفته بالجنرال الفرنسي جاكبي المدي السابق للاستخبارات الفرنسية سترتك الباب مفتوحا امام تساؤلات عدة. ففي يوم خطف المهدي بن بركة من جنيف الى باريس غادر الضابط الفرنسي (لوروي) مكتبه في مصلحة تقصي المعلومات (كونه كان رئيسا لقسم الدراسات) باكرا وتوجه الى مطار أورلي. كانت الساعة قرابة التاسعة والنصف صباحا. لكنه برز ذلك بأنه كان في استقبال الجنرال بول جاكبي هناك. الا ان طائرة الأخير لم تحط في ارض المطار الا في الساعة ١١:٤٠ دقيقة، وقد غاب العميل لوبيز عن استقبال رئيسه المباشر وأخبر زوجته لوروي ليلا انه سيكون «في موعد مع المغاربة» من دون تحديد المهمة. وأضاف امام المحكمة انه طلب من زوجة لوروي ان ترد اسم بن بركة، لكن دون اعطاء كونه أخير المصالح المعنية، لكن دون اعطاء تفاصيل أكثر. لكن الهاتف كان رن في شارع تشرين الأول في قائمة تضم أسماء مغاربة وعليها ملاحظات تفيد أنهم بعضه ان التقرب الى المهدي بن بركة، وكان في وسعه ان يضع المصالح الفرنسية العليا امام تلك المعلومات. لكنه أقر امام المحكمة بأن الاسماء كانت مكتوبة في الادارة الجزائرية المغربية او لمحافظين يزورون فرنسا رسميا في نطاق التعاون مع أجهزة الاستخبارات الفرنسية. الا ان وزير الداخلية الفرنسي فرانسوا سبيدا تحريات حول اختفاء المهدي بن بركة صباح السبت ٣٠ تشرين الأول، وكان يوم عيد الفصحين بدأ، مما جعل مسؤولين في الأجهزة الفرنسية يتوارون عن الانظار للاحتفال بالعيد. لكن خطوط الهاتف كانت متحركة بين بن بركة في منطقة الارياف الفرنسية، خصوصا في منطقة «بلغارف» في مقاطعة «لواريه»، كان خبر اختطاف بن بركة المحور الرئيسي فيها. لكن مفتشا الشرطة الفرنسية اسمه مارتان أكد اليه بالتحقيق في ملف اختطاف بن بركة ان الاجراءات الامنية لم تبدأ فعلا الا ظهر باريس وسيسلمه حادثة ترد انها تحوي البنية الجنرال. لكن الشكوك حامت حول ما اذا كانت تلك الحقيقة تتضمن اموالا سلمت الى المتورطين. ان هناك من يذهب الى ان الجنرال أوفقير قبل توجهه الى باريس زار مقر «الكاب ١» في شارع المولى ادريس في الرباط بحثا عن شيء ما.

جواز دبلوماسي جزائري

في ذلك الصباح كانت العلامة الوحيدة على وجود المهدي بن بركة في باريس برقية من شرطة الحدود السويسرية في مطار جنيف، تؤكد ان المهدي بن بركة سافر الى باريس سفرا دبلوماسيا جزائري صادر عن السفارة الجزائرية في القاهرة. لكن العميل الفرنسي كولومب، المسؤول عن شرطة الحدود في مطار أورلي، أكد انه لم يتلق اي اشعار من ادارته باتخاذ اي اجراء احترازي، علما ان المهدي بن بركة كان يسافر عادة بجواز سفر باسم مستعار «الخلوي»، لكن احد مراقبيه السابقين من رجال الامن سئلوا أمرا بالبحث ان كان المهدي معتقلا في أحد المراكز الامنية الفرنسية. وقد اتصل المفتش فرانسوا الكايدى بجهاات عدة للاستفسار، ضمنها شقيقه عبدالقادر في فندق تريموال، واكد له ان المهدي لا يوجد تحت حراسة اي مركز امني في باريس. حدث ذلك صباح ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٥، أي في اليوم التالي لاختطاف المعارض المغربي.

ما بين الشبكة الفرنسية التي جندها العميل لوبيز وافراد الأمن المغربي الذين كانوا في باريس خلال فترة اختطاف المهدي بن بركة علاقات غامضة، سيُفصح عنها العميل العالي الماحي الذي كان يوم ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٥ في استقبال الجنرال أوفقير، وهو برز ذلك بأنه كان في انتظار زوجته فاطمة التي لم تات في الموعد المحدد الا في الغد، لكن أوفقير سيطلب الى الماحي حجز غرفة في احد فنادق باريس وسيسلمه حادثة ترد انها تحوي البنية الجنرال. لكن الشكوك حامت حول ما اذا كانت تلك الحقيقة تتضمن اموالا سلمت الى المتورطين. ان هناك من يذهب الى ان الجنرال أوفقير قبل توجهه الى باريس زار مقر «الكاب ١» في شارع المولى ادريس في الرباط بحثا عن شيء ما.

الرجل الغزّ

في رصد المتورطين في اختفاء المهدي بن بركة يبرز «الرجل الغزّ»، هكذا اصطلح على نعت «الشتوكي» الذي ورد اسمه في محطات عدة قبل اختطاف المهدي بن بركة ويعد. فقد عهد اليه الجنرال أوفقير متابعة الملاحقة جانب العميل العالي الماحي الذي سجل اسمه في إحدى الجامعات الفرنسية طالباً. وبخلاف وضعه والتعرف عليه الذي قاد الى اعتقاله في باريس ثم الإفراج عنه بعد المحاكمة، فإن «الشتوكي» بقى غامضاً، لأنه لم يكن سوى اسما مستعاراً لأكثر من شخص، وبخاصة العميل ميلود التوسني الذي كان يعمل في جهاز الاستخبارات «الكاب ١» في المغرب. وقد تردد اسمه في تحريات القضاء الفرنسي، وفي افادات متورطين في اختطاف المعارض بن بركة. لكن بدايات ظهوره ترتبط بشروع الشريط السينمائي كفي، إذ يعتقد ان كان على علاقة بالفرنسي فيليب بيريني وشركائه في الخطة. وتذهب مصادر أخرى الى القول ان الشتوكي كان اسما مستعاراً للرئيس السابق لمصالح الامن في وحدة شرق المغرب العميد الطيب هابي، لكن الأخير نفى مراراً عدة أي علاقة له بالموضوع. ويصعب من حيث الاختلاف الجسماني بين الرجلين ان يتنقلا معا بجواز سفر مزور يحمل اسم الشتوكي. لكن التفسيرات ان «الرجل الغزّ» رافق الفرنسيين فيليب بيريني وجورج فيغون الى القاهرة في مطلع ابلول (سبتمبر) ١٩٦٥، وهما كانا على موعد مع بن بركة هناك. وافاد العميل اطنان لوبيز انه كان ينادي على الشتوكي باسم «عباس»، وانه تعرف عليه من خلال العال الماحي الذي قدمه الى مسؤولين امنيين في باريس بدعوى ملاحقة الامن



ملف الختفين: هل يطويه كلام البخاري عن تدويب الجثث في «دار القري»؟

الصينية ليعود ضابطا بحمل وساماً فرنسياً، لكنه منذ عام ١٩٦٥، بعد حادث اختطاف المهدي بن بركة لن يزور فرنسا ابداً، فقد صدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة، وهو ظل الى جوار الحسن الثاني الى حين اكتشاف تورطه في المحاولة الانقلابية الثانية عام ١٩٧٢. وكما كان غامضاً في حياته كان انتحاره كذلك. كان الجنرال احمد الدليمي وفيها مدرسة أوفقير، والفرق بين الرجلين اللذين عملا في جهاز الامن والاستخبارات، ان احدهما لم يكن يثق في الآخر حتى وان ابديا مسريدا من الحرص في الانضباط العسكري. وليس صدف ان الدليمي كان برفقة الحسن الثاني في المقاتلات التي تعرضت لكصف الصحافيون الإفريقية، صيف ١٩٧٢. فقد كان يدعك الواعية في التخلص منه. لكنه ساندك الى الواجبة ويصبح «الرجل القوي» في البلاد بعد انتحار أوفقير الى ان غيبه الموت في حادث سير عام ١٩٨٣ في مراكش. يعكس ذلك، كان المهدي بن بركة مشهودا له بالذكاء والدينامية وسرعة البديهة. لكنه كان اكثر طموحاً. ظل بريق عينيه يلاحق المتورطين الطائفة التي تعرضت لكصف الصحافيون الإفريقية، صيف ١٩٧٢. فقد كان يدعك الواعية في التخلص منه. لكنه ساندك الى الواجبة ويصبح «الرجل القوي» في البلاد بعد انتحار أوفقير الى ان غيبه الموت في حادث سير عام ١٩٨٣ في مراكش.

يعكس ذلك، كان المهدي بن بركة مشهودا له بالذكاء والدينامية وسرعة البديهة. لكنه كان اكثر طموحاً. ظل بريق عينيه يلاحق المتورطين الطائفة التي تعرضت لكصف الصحافيون الإفريقية، صيف ١٩٧٢. فقد كان يدعك الواعية في التخلص منه. لكنه ساندك الى الواجبة ويصبح «الرجل القوي» في البلاد بعد انتحار أوفقير الى ان غيبه الموت في حادث سير عام ١٩٨٣ في مراكش.

لاثق حتى في وسادتي

وربما كان التعبير الذي صدر في إحدى المرات عن الملك الحسن الثاني «لاثق حتى في وسادتي» افضل اختزال لسلمات تلك القدرات الصالكة التي سيكوي على المغاربة ان يتصالحوا معها بقوة الطبيعة التي منحت النسيان قوة خارقة. لكن في حال المهدي بن بركة لم يستطع قانون النسيان ان يغيبه من الذاكرة المغربية. وربما بسبب ان الغموض احاط بطرفه مقتله، تحول بن بركة رمزاً، واصبحت حانة «البي» محجاً سنوياً لرفاقه القدامى ولأجيال جديدة من الطلاب ورجال الفكر والصحافة يتوارون اليها في الموعد نفسه مرة كل سنة في ٢٩ تشرين الأول من كل عام، يشعلون بعض الشموع ويحملون لافتات تطالب بكشف الحقيقة التي اصحبت نعت في المغرب الان بانها «حقيقة ذائبة»، وليس ضائعة.

وبين الفينة والأخرى تظهر معطيات جديدة على درب تلك الحقيقة غير المتكتمة. لكن تحريات اوساط عدة مغربية وفرنسية تتلقى عند فكرة ان جثته دفنت في غابة في ضواحي باريس غير بعيد عن «القبلا» التي نقل اليها، سيما وان صاحب حركة الطيران المدني او العسكري ما تسجل في تلك الفترة افعال او طائرة عسكرية في اتجاه الرباط. الا ان افادات عمل الاستخبارات السابق البخاري اعادت الجدل حول مصير جثته الى الواجبة، وكان لافتاً ان أبرز تداعياتها تطلعت في خروج ضباط رفيعي المستوى عن صمتهم حيال اتهاماتهم بالضلوع في تدويب جثته، ان لم يتفقوا بنفي الاتهامات، وانما زادوا على ذلك ان البخاري كان فصل من عمله في الاستخبارات قبل حصول حادثه بن بركة بثلاثة اشهر بسبب عدم الانضباط المهني.

لكن تحريات مطابقة أكدت ان العميد السابق لامن عبدالحق الشعاشي شقيق محمد الشعاشي كان هناك في باريس في الفترة نفسها، الا ان المسؤولين المغاربة يعزون ذلك الى كونه عمل مدير ديوان العميد احمد الدليمي، وان زيارته رفقة مسؤولين آخرين كانت معروفة لدى السلطات الفرنسية، الى جانب عسكرين بارزين امثال الجنرالين الفسوي والشلواطي، فالاول قاد الجيش المغربي في معركة الجولان الى جانب القوات السورية في حرب اكتوبر ١٩٧٣، والثاني قتل في المحاولة الانقلابية الاولى في الصحيرات عام ١٩٧١. بيد ان الخطة التي اقامتها السفارة المغربية في باريس على شرف الجنرال أوفقير والعميد الدليمي وقتذاك، لم تخل من مفاجات، بينها ما تردد عن ان بعض عقيلات المتورطين الفرنسيين في خطف بن بركة ان هناك.

وفي مقدمهم محمد الشعاشي يؤكد ان مهمتهم كانت تدرج في اطار «مباراة الاعمال التخريبية ضد النظام» عبر تفكيك شبكات توريد الأسلحة وتدريب المعارضين، مما مكّهم من الاستيلاء على اسلحة عدة لدى مراهمة مواقع المعارضين واعتقالهم. وهذا الاعتقاد يكاد يلتقي مع وقائع محاكمات اعداد كبيرة من اولئك المعارضين وانتزاع اعترافات وهمية منهم. وقد حدث ان المعارض مومن البوري الموجود حالياً في باريس اتفق وبعض عملاء الاستخبارات الى ان يزكي طروحاتهم في اكتشاف شبكات التخريب. لكنه تنكر لذلك امام المحكمة عام ١٩٦٣ بيد ان تقديم المتهمين الى محاكمات مشهورة في اعوام ١٩٦٣ و ١٩٧١ و ١٩٧٤ يحمل على الاعتقاد ان السياسيين الذين كانوا يتعرضون للتدويب الوحشي في «دار القوي» او «غمرها»، كانوا يقدمون الى محاكمات جماعية، ومع ذلك فإن بقاء ملف الاختفاء القسري مفتوحا حول أكثر من مئة شخص غابوا في فترات الاحتقان السياسي يطرح كثرنا من الاسئلة حول ظروف اختفائهم او جوارات سفر مزورة تحمل أسماء اصدقاء في الحياة، وانهم سافروا مرات عدة الى باريس خصوصاً في فترة ملاحقة المهدي بن بركة التي انتهت باستدراجه الى لقاء مع الموت، عبر جوازات سفر مزورة تحمل أسماء اصدقاء في الطفولة مباشرة بعد اندلاع أحداث الدار البيضاء في اذار ١٩٦٥ والتي صدرت اتهامات بضلوع المهدي بن بركة ورفاقه في المعارضة في تحريكها. وقالت مراجع رسمية ان الحسن الثاني ابدى قلقاً واتزعاجاً كبيرين حيال الطريقة التي تعامل بها الامن والجيش مع المظاهرين، كونها اتسمت بالعنف والقسوة أحداث ارواح الابرياء. لكن، في اي حال، أدت عمل لرصد الوضع السياسي في البلاد، احدهما كانت تراهن على الانفتاح واحتواء

وكان البخاري كشف في هذه النقطة تحديداً انه يملك قوائم بأسماء سياسيين كانوا يعملون لتحرير تلك الأجهزة. كما اوضح انه عمل مندسماً في تنظيم «شيخ العرب» الذي كان يعمل من أجل طاحة النظام. ويعتقد ان الملاحقات امتدت الى خارج المغرب، وتحددت الى الجزائر وفرنسا واسبانيا وبعواصم في الشرق الأوسط والثابت، في غضون ذلك، ان بعض عملاء الاستخبارات المغربية الذين كانوا يتبعون معارضي النظام في الجزائر تعرضوا للقتل. وهناك رواية حول المرض ابو بكر الصوني الذي ترد انه قطن المهدي بن بركة بجرعة زائدة، تقول انه كاد يلقي المصير نفسه في عملية تنظيمية أجهزة الاستخبارات المغربية في منطقة على الحدود المشتركة مع الجزائر. واخبرني احد المعارضين شخصياً انه سمع عن هذه الرواية عندما كان مقيماً في الجزائر في بداية الستينات، في حين قال البخاري ان عملاء مغاربة كانوا متخصصين في اختطاف معارضي النظام ارتبطوا بعلاقات مع شبكات المهربين لتسهيل مهماتهم.

سردولة

بين التعاطي معها قضية فرنسية، كون تورطها وقعت داخل الأراضي الفرنسية، وقضية فيها أشخاص فرنسيون، او قضية مغربية على اعتبار ان المعارض بن بركة مغربي، وكما بصدد التحضير للعودة الى بلاده، او قضية مغربية - فرنسية يحكم ملاسبات التشابك في علاقات المتورطين، بقيت وقائعها موزعة بين ارضيات اطراف عدة، ضمنها أجهزة المخابرات الاميركية وملفات «الموساد» الاسرائيلية، عدا عن الاستخبارات الفرنسية والمغربية.

لكن مفهوم سر الدولة الذي لا يمكن الإفصاح عنه بالاتفاق كامل بين الاطراف المعنية سيكفي وقائع القضية الى درجة الالتباس، سيما وان اللاعين الاساسيين في مريعها غابوا جميعاً عن مسرح الحياة، وفيما دفن جثمان الجنرال أوفقير في مسقط رأسه في تافيلالت التي ولد فيها عام ١٩٢٠ عند مشارف الصحراء جنوب شرقي البلاد، في منطقة لا يزورها احد، فإن الجنرال احمد الدليمي ووري التراب في مقبرة الشهداء في الرباط. اما المهدي بن بركة فقد ظلت جثته سرا لا يعرف احد.

ثلاثة رجال سيطبعون فترات الاحتقان السياسي في المغرب منذ نهاية الخمسينات الى بداية الثمانينات، مع فارق ان التباين في المواقف ظل قائماً. فالعسكري أوفقير الذي كان يوصف بـ الرجل المدوي، حارب الى جانب الفرنسيين في معركة بلفيدير وحمل العلم الفرنسي عند الدخول الى روما في الحرب العالمية الثانية وشارك في حرب الهند

مرات عدة. بيد ان البخاري يؤكد ان افاداته تستند الى روايات كان يتبادلها والعملاء الشعاشي والمنساوي والصاكة في جلسات خاصة. وقادت تحريات «الحياة» الى ان بعض هؤلاء كانوا يرتابون نادياً لكرة الحديد في الرباط لكن محمد الشعاشي لم يكن ضمنهم، ما يحمل على الاعتقاد بوجود علاقات حميمة بين اولئك العملاء الذين قال البخاري ان المصير كانت تقارير وضعت امام مكتب وزير الداخلية الفرنسي فرانسوا سبيدا عن ضلوع أوفقير والدليمي في اختطاف بن بركة، لكنها كانت في حاجة الى ادلة قاطعة، ما سبب وزير الداخلية فرانسوا سبيدا عن مساعدته «حاولوا جنس أوفقير خلال الحفل وراقبوا جيداً ردود الفعل التي تستصدر عنه».

ربما كان رد الفعل المنير في الحلقة ان الجنرال أوفقير أعلن انه سيكون مضطرا لمغادرة باريس في حين، لكنه صرح قبل ذلك ان التحقيق متواصل، وفي حال كانت الشرطة الفرنسية لديها مبررات لاشتباه حولي، كانت لا شك ستبلغها الي، خصوصاً ان مدير وزير الداخلية هوبير كان بدوره حاضرا في الحلقة. لكن مسؤولاً فرنسياً نقل عنه القول ان الجنرال «مختور»، ومع ذلك فان حجز تذاكر



المهدي بن بركة لم يستطع قانون النسيان ان يغيبه من الذاكرة المغربية. وربما بسبب ان الغموض احاط بطرفه مقتله، تحول بن بركة رمزاً، واصبحت حانة «البي» محجاً سنوياً لرفاقه القدامى ولأجيال جديدة من الطلاب ورجال الفكر والصحافة يأتون اليها في الموعد نفسه مرة كل سنة في ٢٩ تشرين الأول من كل عام، يشعلون بعض الشموع ويحملون لافتات تطالب بكشف الحقيقة التي اصحبت نعت في المغرب الان بانها «حقيقة ذائبة»، وليس ضائعة.

السفر لعودة الجنرال محمد أوفقير والعميد احمد الدليمي والضابط الشعاشي واخبرين الى المغرب في الرابع من الشهر نفسه، خضع لاجراءات دبلوماسية عادية. لكن على الطرف الاخر كان افراد الشبكة المتورطون من اصول فرنسية يتحدثون عن الانتظار واحدا بعد الاخر، وقد عادوا الى المغرب لاستقرار نهائياً، لكن اوضاعهم اطمئت بمزيد من الغموض بعد انتصار الجنرال أوفقير في صيف ١٩٧٢.

البحث عن الحقيقة

يقول عميل الاستخبارات المغربي السابق احمد البخاري ان البحث عن الحقيقة كان حازمه وراء افادته عن استكوث عن في أجهزة الاستخبارات المغربية. لكن العملاء الذين اتهمهم بقولون كيف يمكن لحارس امن بسيط ان يتعرف على ملفات، تكون حكرًا على المتنفذين في الأجهزة، ويرون ان ماضيهم «الاخلاقي السيء» تسبب في فصله من العمل